مأساة عنترة
بين المواجهة والبحث عن بديل

إعـــداد

الباحثة/ مروه ضاحي مرزق علام
باحثة ماجستير في الآداب تخصص أدب قديم
كلية الآداب جامعة أسيوط

تاريخ الاستلام : ١٤/ ٨/٢٠٢٢م
تاريخ القبول : ٢٤/ ٨ /٢٠٢٢م

ملخص:

تتناول هذه الدراسة صورة الشاعر المحارب من أجل نيل الحرية في الشعر الجاهلي، الذي عاش يعاني مأساة الرق والعبودية، وحاول بكل ما لديه من طرق ليقوى على مجابهة الحياة، ويتصدى لكل الصعاب، ليتربع على عرش الفروسية، بلا منازع، ويثور للعبيد كافة ولنفسه بخاصة، ليضرب أصدق الأمثال في دور التحدي، في الوصول لما تطمح إليه النفس، وأنه لا مستحيل مع الحياة.

الكلمات المفتاحية: مأساة عنترة؛ المواجهة؛ النسب البديل

Abstract:

This study examines the image of the poet-warrior fighting for freedom in pre-Islamic poetry, who lived experiencing the tragedy of slavery and bondage. He tried through every means available to strengthen himself to face life and confront all difficulties, to sit uncontested upon the throne of chivalry. He revolted for all slaves and especially for himself, setting the truest examples of defiance in reaching what the soul aspires to, and proving that nothing is impossible in life.

The translation aims to capture both the literal meaning and the poetic spirit of the original Arabic text, maintaining its emphasis on themes of struggle, freedom, and perseverance.

Would you like me to explain any particular aspects of the translation or context about pre-Islamic poetry?

Keywords:Tragedy of Antara,Confrontation, Alternative lineage/descent

مقدمة:

حين ننظر إلى المجتمع الجاهلي في صورته العامة، نرى أنه مجتمع قبلي، انقسم فيه العرب إلى وحدات اجتماعية متعددة، ولقد كانت رابطة القبيلة أقوى من رابطة المدينة، أما عن طبقة العبيد فلقد عاشت حياة سيئة، في هذا المجتمع الأرستقراطي، الذي يؤمن بوحدته، وبجنسه، إيمانًا عميقًا، والذي يمثل العنجهية الجاهلية بكل ما فيها من معاني الطغيان، والجبروت.

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث، المنهج النفسي التحليلي، المتعمق في نفس الشاعر، والواضع يده على مصدر جرحه، والذي يحاول كشف طرق مواجهة الشاعر لمأساته.

الدراسات السابقة:

١- عنترة بن شداد الفارس الأسود، سويلم أحمد، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.

٢- تجليات الذات المغتربة في شعر عنترة، علي عبد الهادي، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، ٢٠١٠م.

خطة البحث:

قد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، ذكرت في المقدمة الأهمية والمنهج والدراسات السابقة، وجاء المبحث الأول بعنوان عنترة الابن البار، أما المبحث الثاني فتكلمت فيه عن زبيبة الأم، وجاء الثالث لعرض أساليب المواجهة لدى الشاعر، ثم جاءت الخاتمة والهامش.

تمهيد:

دار خلاف كبير حول اسم عنترة، وهذا الخلاف يشير بوضوح إلى الخلط المريب الذي أحاط النسب الأبوي لعنترة، وهذا مما لا يسامح فيه المجتمع الجاهلي، لاسيما أنه كان مجتمعًا ذكوريًا، والأفضل أن يكون النسب الأبوي للفرد صريحًا ومعروفًا للجميع؛ حيث لا يشك فيه، ولا ينكره أحد، فيكون بذلك مقبولًا في الجماعة القبيلة، وهذا

ما زاد وضع عنترة سوءًا وتعقيدًا، فكيف له أن يثبت نقاء نسبه الأبوي، والكل يعرف أن والدته أمه، ملكٌ مستباح لمن شاء؟، فكان الشعور بالظلم مسيطرًا على نفسه، ولم يعرف أيّ ذنب ارتكب، ويحاسب عليه طيلة عمره، فهل للمرء أن يختار أمهُ، حرّة أو سبية، أو بيضاء أو سمراء.

آسى عنترة من نكران والده لبنوته؛ لأنَّ المجتمع الجاهلي يأبى عليه احتضان ولده الذي استولده من أمة سوداء، أو اشهار أبوته له؛ حيث كانت أمه تنتمي إلى الطبقة الثالثة من النساء في المجتمع الجاهلي، بعد طبقة الحرائر وطبقة السبايا؛ (حيث كانت السبيّة وقفا على رجل واحد، أمَّا الأمة فكانت شيئًا مشاعًا).[١]

إن للمجتمع الجاهلي نواميسه الخاصة (فالأم الحصان هي الأساس المادّي اللازم لصحة النسب الصريح الموجب لامتلاك مكارم الأخلاق السائدة في المجتمع الجاهلي).[٢]

وكانت الحصانة* هي ما حُرمت منها زبيبة، فحرم منها بعدها عنترة، ولقد كان كرم الخؤولة أحد أهم دعائم صحة الانتساب، إلى جانب كرم العمومة، وعنترة حرم من الأخوال الكرام نسبًا وحسبًا، فهم نصفه المظلم، أمَّا النصف الآخر من جهة أبيه فقد ظلَّ مشوشًا، تحيط به الريبة، ويغلفه الشك حتى بعد اعتراف والده ببنوته، كما ظلت زبيبة الأمة السوداء حجر عثرة في طريقه القدري، فكانت خاصرته مكشوفة، والتي ما برح عنترة يحاول سترها، وحجبها عن سهام الحاقدين المترصدين.

المبحث الأول ـ عنترة الابن البار.

ولقد كان عنترة بارًا بأمه، لا يشترك مع الجميع في تحميلها جريرة ذنب لم تقترفه، فلم يكن ذنبها أنَّها من أبناء حام، وأن الدم الذي يجري في عروقها هو دم أسود، فواجه الجميع، وتحداهم بل ووقف يفخر بأمه وبنصفه الحامي، وضرب نفسه بسيفه لا بسيفهم، يقول (من الكامل):[٣]

وأنــا ابــن ســوداء الجبــين كأنهــا	ضـبع ترعـرع فـي رسـوم المنـزل
الســاق منهــا مثــل ســاق نعامــة	والشـعر منهـا مثـل حـب الفـلفل
والثغــر مــن تحــت اللثــام كأنــه	بـرق تـلألأ في الظـلام المسـدل

عنترة في هذه الأبيات يناقض المواصفات الجمالية، التي اتفق عليها مجتمعه، ويخالف في نظرتهم إلى الجمال؛ ووضع لنفسه معايير جديدة، فعنترة يرى أنَّ أمه لا ينقصها الجمال، غير أنَّ عيون القوم اعتادت استساغة نوع معين من الجمال محدد، هو الحسن الأبيض، ونبذت الأسود منه.

إنَّ الشاعر يتغزل بمزايا الجنس الأسود ممثلًا بأمه، فلا يجد حرجًا في كون أمه حاملة لموروثات ذلك العِرق، زبيبة سوداء الجبين، فلقد كنى العرب بالبياض، كناية عن نصاعة نسب المرء وشرفه، فالجملة الأسمية هنا توضح قدرية الربط بين عنترة وزبيبة، والجار ومجرور (منها) توضح اعترافه بالجميل لأمه حتى في أدق الموروثات، والتشبيه بالضبع يدل على لباس الموت الذي يحاول عنترة نزعه.

فعنترة مشفق على أمه، وعلى نفسه، إذ نراه يشبهها بالضبع، وهو حيوان تبغضه العرب؛ لارتباطه في أذهانهم بفكرة الموت، كالغراب الأسود، والضبع معروف عنه أنَّه ينبش في قبور الموتى؛ فينهش جثثهم، بل جعل الشاعر الديار الخربة، موطنًا لهذا الضبع، وربما يقصد هنا نفسه، فهو ضبع وحيد، مسكين، ومنبوذ، يعاني الغربة والوحدة، بعيدًا عن أفراد جنسه، غريبًا عن أرضه، ولا ينتمي إليها، أرض يعم فيها

الموت، والخراب، والسكون، والجفاف، وهذا انعكاس نفسي أليم، لما يختلط في النفس من انهزامات للحزن والقهر.

فصورة الضبع الذي يرعى في أكناف الدور يوضح الحالة الوضيعة التي نشأ عنترة فيها، وتضع يده على موطن جرحه فهو الطبيب المتمرس في كيفية علاج نفسه ويعمل جاهدًا لكل ينجح في الشفاء، وليس ناكرًا لسبب مأساته، وسبب وجوده، فشخصية عنترة الواقعية تأبى عليه أن يحمل أمه فوق طاقتها التي استنفذتها أعمال الرق بمختلف صعوبتها، ولكنه أراد أن ينبش في الذكريات كما ينبش الضبع، حتى يستخرج لنفسه بطاقة جديدة تعينه على التكيف مع هذه الظروف وقوله الثغر من تحت اللثام كأنه برق، دلالة منه على بياضه والذي تحجبه التقاليد من اعتراف قبيلته به، فعنترة حافظ على توازنه بالتضاد في برق وفي ظلام مسدل، وعكس ثورة الرفض وعدم الرضا التي يحاول كبتها فيما مضى.

وعلى صعيد آخر كرس الشعر الجاهلي قدرًا كبيرًا من أشعاره من أجل المرأة الحبيبة، وتعرض لوصفها والحديث عنها؛ فمواطن الجمال في المحبوبة، فهي في جسمها المادي، وما يصدر عنه من حركات وتعابير، وعلى هذا قام الشاعر بتصوير قوامها، وأجزاء جسمها بالمقدار الذي يتذوقه الجاهلي، وفاقًا لطبيعة حياته وتقاليده.

وقد صور الشعر جسم المرأة المحبوبة ممتلئًا، وقدها رشيقًا أهيف، وقوامها كغصن إذا تمايل ليس فيه ضخامة، يقول النابغة.(٤)

صفراء كالسيراء أكمل خلقها كالغصن في غلوائه المتأود

واتفق الشعراء في وصف الخصر بأنه هضيم مثل كشح المهاة المطفل، يقول أمرؤ القيس.(٥)

لطيفة طي الكشح غير مفاضة إذا انفتلت مرتجة غير متفال

وقد اتفق الجاهليون في وصف مشية الحبيبة بالهدوء، والفتور، فهي تتهادى كما يتهادى المنزوف دمه، أو المنزوف عقله، يقول امرؤ القيس:

وإذ هـــي تمـــشي كمـــشي النزيـف يصـرعه بـالكثيف البهـر

وعند المقارنة بين وصف عنترة لأمه ووصف الشعراء الذين ذكرناهم يتضح لنا إن عنترة حاول محاولات عديدة ليقف بجانب أمه والتي حملته مأساتها بدافع الإنسانية، والنبل الأخلاقي فهو يتلمس كل مواضع الخجل عند زبيبة ويجاهد في تحسينها، ويعرضها عرض ظاهر حتى تصبح مألوفة أمام أعدائه فيحول بذلك نقاط ضعفه لفخ لعدوه الذي يتبارى في التقليل منه في الحرب الباردة وهي حرب الكلام، لأنه على ثقة أنه إذا تواجه مع عنترة الفارس ولاسيما وقت غضبه لن يرحمه من حدة سيفه وقسوة ما عاناه، وهذا الأمر لا يكلف عنترة إلا أنه فارس نبيل، يريد القتال كما تعلم فنونه بالسيف وفي ساحات الحروب لا مناوشات النساء مع بعضهن، وهذه النظرة العارية الفاضحة لم يفعلها عنترة إلا مع زبيبة، محاولًا لعب دور الابن البار لها، حتى ولو في لحظات من خلال سطور يتناقلها الأجيال ولكن ذلك أفضل من أن يصتف مع صفوف الجلادين لأمه، فكان بذلك الابن التي تفخر به أمه، حتى وإن لم تكن هي الأم مجال الفخر.

أما في المقابلة فعند الشعراء السابق ذكرهم الأمر يختلف، وبالتالي فاختلاف المقام يوجب اختلاف الكلام، فالشعراء تفننوا في إبراز مظاهر الجمال عند الحبيبة، فما يحمل عاتقهم ألم العبودية كعنترة، فأفصحوا وأطالوا الكلام، ووصفوا أدق المكونات الجسدية لدى المرأة، فوصف المرار والنابغة القوام والذي إذا تمايل ليس فيه ضخامة واستعانوا بصور التشبيه الجميلة، ولكن ما أعنيه أنَّ الأمر لا يقتصر على الوصف، لا بل هو أعمق من ذلك، فالمسألة قضية شائكة وهي محاولة النهوض من القاع إلى القمة رغم وجود غطاء من أعلى تمثله الأعراف والتقاليد، ووجود إناس يتمسكون بأحكام

الغطاء وعدم نزعه، بل مهمتهم أن تظل هذه الفئة في مكانها دون حراك، فعنترة يحرك الموتى من أجداثهم، بعد أن سكنوا القبور، وألفوا عتمتها، ينادي بالعدل في مجتمع يقدس الطبقية، ولا تنفي ثورة عنترة هذه، ولا وقفته مع زبيبه، وصف الحبيبة عنده، بل تضاعفها، ففاقد الشيء يعطيه أضعاف إن سنحت له الفرصة، وأحيانًا يوجد هو الفرصه، لكي ينفس عن نفسه أوجاع الهوى، وحتى لا أطيل ما أعني بقوله أن لكل إنسان وجهان، فاذا انتصر لغيره من نفسه فهو حق يتربع على مراتب الإنسانية.

المبحث الثاني : زبيبة الأم:

إنَّ زبيبة حالها كحال أي أم، تخاف على ابنها، من أن يسلك درب الهلاك، ولا تطمح لآماله في الحرية، فهي ترضى بحياة الذل، والأهم عندها أنها ما زالت على قيد الحياة، وليس مهم حياة الابتذال هذه، ولا يهم أيضًا الحرمان والذل الذي تحياه، فعنترة يعكس احترامه لأمه وإن اختلف الرأي معاها، فلا يفسد ذلك ودها، فيقول (من الوافر) [٦]:

تعنفني زبيبة في الملام	على الإقدام في يوم الزحام
تخاف عليَّ أن ألقى حمامي	بطعن الرمح أو ضرب الحسام
مقال ليس تقبله كرام	ولا يرضى به غير اللئام
يخوض الشيخ في بحر المنايا	ويرجع سالماً والبحر طام
ويأتي الموت طفلاً في مهود	ويلقى حتفه قبل الفطام
فلا ترضى بمنقصة وذل	وتقنع بالقليل من الحطام
فعيشك تحت ظل العز يوماً	ولا تحت المذلة ألف عام

يشرح عنترة حال أمه وتعنيفها له، على خوضه للمعارك؛ خوفًا عليه من القتل والجرح، فهي تخاف عليه أن يموت بطعنة رمح، ضربة سيف، ولا تعلم أنَّ حياته في الذل، موتٌ بطئ بالنسبة إليه، ويختلف عنترة مع أمه في ذلك الخوف، حتى وإن كان

مقدرًا له، فكلامها لا يقبله الكرام، والفحول من الفرسان، الذين لا يهابون الأخطار فلا يرضى به إلا اللئام، ويوضح لها وجهه نظره من خلال الأبيات، فلكم شيخ كبير يحتمل موته، ورغم ذلك نجده سليمًا معافى، وفي الوقت نفسه يدق الموت أبواب طفل رضيع في المهد، مقبل على الحياة، جاء إليها ليودعها، فيدعو من يسمع شعره، وينصحه بألا يرضى بحياة يصحبها ذل أبدًا، ويتمرد على الوضع المهين، ولا يقنع بالقليل من الأشياء، فالإنسان أفضل له أن يعيش في ظل العز يومًا، خير له من العيش في ذل ألف عام.

المبحث الثالث: أساليب المواجهة:

١- العبودية المتفردة:

وضع عنترة لنفسه منهجًا ذاتيًا واتبعه؛ لإثبات ذاته وبلوغه لحريته، وعنترة كان مدركًا لحقيقة عبوديته، ومدركًا لنظرة مجتمعه إليه، فكان ردة فعله جريئًا، فلم يقنع كغيره من العبيد بهذه الحياة، بل اتخذ من عبوديته تفردًا في سياق التحدي، وادعاء اللامبالاة، وأشار بغير خجل إلى تلك الأعمال المهينة، التي يوكلها إليها سادة قومه؛ فقال (من الوافر):[٧]

أنا العبد الذي خبِّرت عنه	رعيت جمال قومي من فطامي
أروح من الصباح إلى مغيب	وأرقد بين أطناب الخيام
أذل لعبلة من فرط وجدي	وأجعلها من الدنيا اهتمامي
وأمتثل الأوامر من أبيها	وقد ملك الهوى مني زمامي
رضيت بحبها طوعاً وكرهاً	فهل أحظى بها قبل الحمام
وإن عابت سوادي فهو فخري	لأني فارس من نسل حام

وكأنه يسترجع شريط ذكرياته منذ الصغر، فمعروف أن الأحداث الخطيرة، التي تؤثر فينا منذ الصغر، هي التي تحتل مكانها من الألم في الصدر، طيلة الحياة،

فجزعه غائر منذ الطفولة؛ حيث وجد نفسه يرعى الجمال، فعلم بطبيعة حاله، ووضعه في قبيلته، وإن كان هناك صوت خفي داخله يدعوه إلى التمرد؛ حيث يرى نفسه إنه يستحق حياة الكرام، وإنه في وضع مؤقت ومرهون، وعليه الرحيل والابتعاد عنه.

فالفخر هنا ممزوج بصوت الميم الناطقة لأوجاع صدره، والتي آن الأوان لتخرج من بين ضلوعه، فصعوبة الشرح هنا تكمن في معرفة عنترة لذاته وتقديرها جيدًا، ولكن كيف يعطي عيونه للناس لتراه بنظرته لنفسه فيحترمونه، فما خاضه بتنوعه قبول وإجبار لسبب دفين وهو حبه السرمدي لعبله، والتضاد هنا يخدم حالة الحيرة التي يعاني منها الشاعر فهو يفخر بقوته والمجتمع لا يعير له أي اهتمام، كما أنه في شك مما تحمله له عبله وتسرب هذا الشعور من قوله فأن عابت سوادي، أنى للحبيب أن يرى العيوب في محبوبه، ولكن عيون عبلة نفسها عيون قومها، تجلد وتفضح العيوب، بل تترصدها لتجد مجال للانتقاد.

ولقد صور عنترة معاناته، وجسد صورة العبد الثائر، وصرح بإنه سيغير هذه الصورة في الأذهان، كما غير مفاهيم الجمال، فجعل لنفسه قاموسًا غير مسبوق، ولا يوجد إلا عنده، فيقول (من الوافر):[٨]

أنــا العبــد الــذي خبــرت عنــه	يلاقـي فـي الكريهــة ألــف حــرّ
خلقــت مــن الحديــد أشــد قلبــاً	فكيــف أخــاف مــن بــيض وســمر
وأبطـــش بـــالكميّ ولا أبـــالي	وأعلـــو للســـماك بكـــل فخـــر
ويبصـــرني الشـــجاعُ يفـــرُّ منـــي	ويـــرعش ظهـــره منّـــي ويســـريَ

فعنترة ليس ذلك العبد الراضي بوضعه، بل هو مثال يتمنى الأحرار التشبه به، هو واحد فردٌ، قادر على مجابهة الآف الأحرار؛ الذين يعتزون بفروسيتهم، ونلاحظ في هذه الأبيات أنَّ عنترة غير المادة الآدمية لقلبه، وقساها لتصبح أكثر صلابة من الحديد

نفسه، فالأبيات عبارة عن خطة متبعة من عنترة لحماية نفسه من سخريات الأعداء، فالالتفات في أنا ويلاقي يوحي بكثرة ما يقولونه ولا يعيره اهتمام، واستخدام أشد قلبًا وموقعها الإعرابي– التمييز– إشارة منه على تميز قلبه عن بقية القلوب لقومه، ونلاحظ عند عنترة كثيرًا ما يعقب حديثه عن الهوى والقلوب بفرد مساحة كبيرة لعضلاته وقوته، فعدم الفصل هنا يبين أنّ مواجهة حبه ما كانت إلا بأن يمشي في دروب الفروسية والبطش بأعدائه، فعنترة لا يعترف بالقلب الحنون إلا في مجال العشق والهوى، وهذا تأثير قومه ومجتمعه عليه، وأمَّا باقي المجالات فالغلبة للقوة.

فيحرص عنترة على الظهور بلباس الفارس الحرّ، لا بهيئة العبد الخامل، ويكرر هذا في قوله (من الوافر):[٩]

أنا العبد الذي يلقى المنايا	غداة الروَّع لا يخشى المحاقا
أكرّ على الفوارس يوم حرب	ولا أخشي المهندة الرِّقاقا
وإني أعشق السمر العوالي	وغيْري يعشق البيض الرشاقا
وكاسات الأسنة لي شراب	ألذ به اصْطباحاً واغتباقاً

يكتب عنترة في أشعاره الخلود لتفرده، وكأنه يعلم أنَّ هناك خلقًا يأتي بعده؛ فيكتب مذكراته، ويُعلمنا بما يدور في نفسه من آلام ممزوجة بفرح، وفخر القوة والفروسية، يمتزجان معًا، فهو يقابل المنايا في الحرب، ولا يخاف المحاق الدال على ظلمة الليل وليالِ العبودية، ويهجم على الفرسان في ساحات الحروب، ولا يُهاب السيوف فهي رفيقته في إثبات، فهو عندما يسمع صوتها في المعركة؛ فيشعر بالطرب، ويشتاق إلى ضربها.

تتضح عبودية عنترة المتفردة في أسلوبه، فنلحظ سيادة ضمير المتكلم على ساحة الفخر، وكأنه يعوض نفسه، من إنكار قبيلته له، ولكن هذه الأنا مريضة، فمواساة صاحبها عنترة لنفسه جرعة من جرعات الانتفاخ؛ لكي يكتسب صحة وهمية لبعض

الوقت، أو رضا وتصالح مع الذات، والأصدق أن كل هذه المحاولات الزائفة، لا تؤدي إلاَّ لمزيد من الشعور بالحسرة، والقهر، وخيبة الأمل، فسرعان مايزول مفعولها ويتلاشى.

بسلاح الأنا المتفردة في أشعاره يواجه عنترة قومه، ويتحدى عنترة فرسان عبس؛ الذين لم يرفعوه من طبقة العبي، رغم تفوقه البين عليهم، يتحداهم غير آبه بانتمائهم، وأنسابهم، فيفخر بالانتساب إلى مايليق بالفرسان؛ فيقول (من الكامل):[١٠]

إن كنت في عدد العبيد فهمتي ... فوق الثريا والسماك الأعزل
أو أنكرت فرسان عبس نسبتي ... فسنان رمحي والحسام يقّر لي
وبذابلي ومهندي نلت العلا ... لا بالقرابة والعديد الأجزل

فيواجه عنترة قومه قائلًا، فبالرغم من كوني عبدًا من عبيدكم فهمتي، وشجاعتي تعلو بي إلى السماء، فوق النجوم الزهر، وإذا أنكرت بنو عبس نسبتي إليهم؛ فسيفي ورمحي يقران لي بعلو الهامة، فلقد حققت المجد بنفسي، لا بالانتساب ولا القرابة لأحد منهم.

فيحاول عنترة الارتقاء والصعود إلى أكثر الأماكن ارتفاعًا؛ حيث تسكن النجوم والكواكب، أو بمعنى آخر، يحاول الفرار والهروب من المواجهة الذاتية، فمواجهة الذات أمر يحتاج إلى قدر عالٍ من الشجاعة والثقة، لأن مرآة الذات قد تزيد من حجم العيوب، ولكن هروب عنترة من نفسه، غير مجدٍ؛ لأنَّ المرآيا تحيط به في نظرة القوم له، فتعكس عبوديته، ولا ترى من شخصه سوى البشرة السوداء، فلا تغوص في أعماقه لترى الجمال الكامن في روحه.

ويظهر تمسك عنترة بلونه هنا محاولة للثبات، فهو يحزن من لونه، ومن نسبه، لكنه يتظاهر بغير ذلك؛ ليخفف من تمزق روحه، أو أنَّه يتخذه معبرًا للاعتراف بنسبه،

فعنترة يتخبط في القاع، فحجم الحلم هنا، بحجم الحرمان أو أكثر منه، فعنترة يكثر من استخدام الجمل الأسمية القصيرة كما في (أنا العبد، أنا ابن سوداء الجبين) وغيرها، تظهر تفرده بالعبودية، وهذا يعطي المعنى ارتدادًا للماضي وثباتًا في الزمن الحاضر، بل الاستمرارية في المستقبل الغائم، وكأنه وضع قسري مفروض عليه لا فكاك منه.

إنَّ وسيلة عنترة الأولى في المواجهة، كانت اعترافه الصريح والمباشر بعبوديته، ومحاولة إسباغ لون من الفرادة، والتميز عليها، وذلك بارتداء حُلَّة الفروسية؛ التي يرى أنَّها تحجب هوان العبودية.

اللون الأسود:

الأسود هو اللون الذي أرق ليل العبيد، فهو لون العبودية، فالجلد الأسود كان دليل عبودية عنترة، فكان الرداء الذي لا مجال لخلعه أوتمزيقه، فكان حمله الثقيل؛ الذي يتضاعف على امتداد حياة عنترة، فيقول على لونه (من الوافر).[١١]

لـــئن أكُ أســـوداً فالمســـك لـــوني ومـــا لســـواد جلـــدي مـــن دواء
ولكـــن تبعـــد الفحشـــاء عنـــي كبعـــد الأرض عـــن جـــو الســـماء

يطبق عنترة مبدأ فداوِها بالتي كانت هي الداء، فيحاول الظهور بمظهر المنسجم مع ذاته، والمتوافق معها، لا بمظهر الضعيف الراكن لآلامه، فإن كان متمردًا على وضعه وعبوديته، فلقد حاول عنترة كشف عيوبه وتحويل مسارها، لميزة فيشهر بصوته عاليًا، أنَّ المسك لونه، فالمسك من حاجات الترف، فلا غنى عنه مِن قبل هؤلاء السادة، فليس البياض لوناً له، غير أنَّ لونه العتيق الأسود يشيع النشوى، والألق الأبيض في النفـوس، يقول (من الطويل):[١٢]

سـوادي بيـاضٌ حـين تبـدوُ شـمائلي وفعْلـى علـى الأنْسـابِ يزهـو ويفخـر

يعلن عنترة ويؤكد اختلافه وتميزه، فسواده ليس كسواد غيره، بل هو مختلف تماماً عن سواه، وذلك نابع من اختلافه هو، وامتيازه على غيره من السودان (السود)، وغيره من البيض أيضًا، فيقول (من الطويل):-

يعيبـــون لـــوني بالســـواد جهالـــة ولـولا سـواد الليـل مـا طلـع الفجـر
وإن كـــان لـــوني أســوداً فخصـــائلي بيـاضُ ومـن كفـي يسـتنزل القطـر

فقرينه الأسود هنا تشير للفجر وما ينبثق من نور الصباح، ولونه الأسود الظاهر يخفي في باطنه بياض الخصال، وسريرة النفس، فالجواهر النفيسة، لطالما اختبأت في الأعماق، فقيمة المرء لا تكون بلون مشرق، ولا بمجد يرثه من أب ماجد، أو جد كريم، فالتجربة وحدها، هي صانعة الرجال، وهي التي تظهر معادن الرجال، وأصولهم، فالرجال تُقاس بالأفعال، لا بالجمال والأقوال.

فعنترة يصرخ بجوارحه، شاهدًا على جهل قومه وعشيرته، في تقدير أهمية وجوده، فما بزغت خيوط الفجر إلا من ظلام الليل ودماسته، فيقف موقف الشاهد اللائم على صنيع قومه، والإجحاد بفضله، كما ربط كفه بنزول قطرات المطر بخيرها، وكأنَّ له السبق، واليد الفاعلة في كل خير حل بقومه، والتضاد في الليل والفجر، وفي أسود وبياض، أظهر حالة الدهشة والحيرة التي تعتري الشاعر الإنسان، فجهل قومه أطمس أعينهم عن مميزات عنترة، وسلط الضوء على ما يتخذونه موطن مذلة، فالنفوس المريضة، نفوس خائفة وظالمة، لا تقوى على نبل المنافسة، ولا تؤمن بميزان العدل والإنصاف.

يماذج عنترة بين المادي والمعنوي، فسواده المحسوس، المادي والمرئي، يتحول عند التفاخر إلى بياض، متمثل في شمائل وخصال فيستبدل اللون الأبيض بحسن الأفعال، وكرم النفس بديل عن كرم النسب، غير أن مجتمعه، وبني قومه لا يقبلون

ذلك الاستبدال، فهي عندهم ثوابت لا تقبل المبادلة، وما كان تشبثهم بتلك القيم الفارغة، إلا على محدودية في التفكير، وضيق في الأفق، وقِصر في النظر، بل تبلغ الأنا الذاتية مداها، فتعلو على العلا، وتفوق السماكين، ويمزجها بلونه فيقول (من الطويل):(١٣)

بني عبس سُودوا في القبائل وافخروا بعبدٍ له فوق السماكين مِنبر

إذا ما منادي الحي نادي أجبته وخيلُ المنايا بالجماجم تعثر

سل المشرفيَّ الهندواني في يدي يخبرك عني أنني أنا عنتر

إنَّ فخر عنترة مبطن بإحساس القهر، والإحساس بالإهمال والتجاهل، فمع إدراكه الواثق بمزاياه، وتفوقه على غيره، وإنه جدير باستحقاق واحترام القبيلة، ولكنه يقابل ذلك بنكران، وجحود، ولا مبالاه، فدعوته لقومه للفخر به، ماكانت إلا علامة من علامات ثوران للبركان الذي بداخله، وعرض مختصر لفروسيته وبطولاته، وفي الوقت الذي لم ينصفه قومه، كان الجماد بالإنصاف أحق، فحقق المجد كله بسيفه، فكان الصديق الحق حول لفيف من جمع كاذب.

ويحاول عنترة حجب اهتمامهم بسواده إلى التركيز على محاسنه، ومزاياه الكريمة، فيقول (من الرجز):(١٤)

وإن كان جلدي يُرى أسوداً فلي في المكارم عز ورتبه

ولعنترة فلسفته الخاصة وقيمه، التي يظهر منها النبل والخصال الحميدة، وكأنَّه هذَّب نفسه، وتسامى عن كل خبيث، فيقول (من الوافر):(١٥)

تعيرني العِدا بسواد جلدي وبيض خصائلي تمحو السّوادا

توجد مفارقة في هذا البيت؛ حيث يصف عنترة أبناء قومه بالأعداء، فالشاعر يدعوهم إلى النظر في مرايا أنفسهم جيدًا، ليروا قبحهم، وبشاعتهم، وخبث خصالهم، فلو استطاعوا رؤية ذواتهم في مراياهم؛ لأدركوا جمال عنترة، فيقول (من الطويل):[١٦]

بنيت لهم بالسيف مجداً مُشيداً فلما تناهى مجدهم هدموا مجدي
يعيبون لوني بالسواد وإنما فِعالهم بالخبث أسود من جلدي
فوا ذُل جيراني إذا غبت عنهم وطال المدى ماذا يلاقون من بعدي

تكشف لنا هذه الأبيات ألم عنترة ووجعه، فبالرغم من أنه بنى لقومه مجدهم بسيفه، وجعل القبيلة من أقوى القبائل؛ التي تهاب، بل يخاف منها أسد الفلا، فينسون كل ذلك، ويعيرونه بسواده، وينسون أفعالهم التي تفوق سواد جلده، فهم أثبتوا أنهم عديمو البصر، والبصيرة.

هناك مفردتان متنافرتان، ومتضادتان تلحّان بشدة على ذاكرته وتشعلان حيزًا كبيراً، من قاموسه اللغوي والنفسي هما، أسود وأبيض، ويظهر الصراع لديه على أشده ما بين طرفي تلك الثنائية المتنافرة في قوله (من البسيط): [١٧]

وإن يعيبوا سواداً قد كسيت به فالدرُّ يستره ثوبٌ من الصدف

إنَّ اللؤلؤ الشفاف يرقد مستورًا، تحت الصدف القاسي، لؤلؤ ينتظر صيادً، يخرجه من القاع، فيكون زينة وحُلية تسر الناظرين، وهذا حال عنترة، فجلده الأسود ما هو إلاّ ذلك الصدف القاسي، وتحته تسكن روحه الطاهرة الشفافة النبيلة، غير أنَّ الصياد، وهو المجتمع القبلي، قاسي القلب والروح، فبدل من أن يصل إلى جمال الروح العنترية، فإنه يزيد قسوة القيد الذي يحيط بيديه، محاولًا سلب الروح من الجسد، فعنترة كان راضيًا، وتدرب على قبول لونه الأسود الذي يحيق بجلده، وتفضيله على غيره من الأثواب، بما فيها الأبيض، وإخفاء مسحة من الألق والومضة، فيزداد بهاءًا، وتألقًا،

وربما ما حمله على التأقلم، هو صبره وجَلده، وإدراكه لحقيقة تميزه، فيقول (من الوافر):-[١٨]

لعمري ما الفخار بكسب مال ... ولا يدعى الغنى من السراة
ستذكرني المعامع كل وقت ... على طول الحياة إلى الممات
فذاك الذكر يبقى ليس يفنى ... مدى الأيام في ماضٍ وآتي
وإني اليوم أحمي عِرض قومي ... وأنصر آل عبس على العداة

ويجمل عنترة معاناته، فيرد كل إسادة من قِبل قومه بإحسان وجرآه، فارس مقدام، فهو يخلد ذكره في أشعاره؛ لينال حقه من أجيال قادمة، وليس من جيل قومه المنبوذ بينهم.

عنترة والنسب البديل:

من أساليب مواجهة عنترة البحث عن النسب البديل، فلقد كان منقوص النسب، مشطور بين أب ماجدٍ، وأم ضئيلة الشأن، أو معدومته، ويشير إلى هذا فيقول (من الكامل):-

إني امرؤ من خير عبس منصبًا ... شطري وأحمي سائري بالمنصل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ... ألفيت خيراً من معمٍّ مُخول

يفخر عنترة بنصفه الأبوي الكريم، ولا يقلل من شأن نصفه الأمي الهزيل، فيوضح أن هجانته، واختلاط نسبه، أكسباه قوة وبسالة، لا يتمتع بها سواه من ماجدي الأنساب، كرام الأعمام، والأخوال؛ فيقول إنه ينتسب إلى خير رجال بني عبس، ألا وهو والده شداد، ومنه ورث الرياسة والشجاعة، والقوة والشرف، وهو أكد تلك الوراثة بحماية الديار والأهل بحد سيفه، ولكن مع كل هذا، قد طغى الجانب الأسود في واقع عنترة، ورجحت كفة الأمّ الأمه، على كفة الأب السّيد.

فلغة عنترة تظهر بها الحدة على قدر المرارة والألم، فتأكيده (إني امرؤ)، واستخدامه للجملة الأسمية المؤكدة بإنَّ، والضمير المنسوب إلى المتكلم، يوحي بالحدة الممزوجة بالوجع، ولكن في واقع الأمر إن أغلب محاولاته، باءت بالخسران، غير أن ذلك لم يمنعه، من العثور على دواء يخفف به سقامه، ويحقق به لنفسه شيئًا من التوازن، ولو كان زائفًا.

حاول عنترة بناء أو اختراع نسب خاص به، ينتمي إليه وحده، وذلك بإنشاء عالم، يكون هو المحور الرئيس فيه، وكل الأشخاص في ذلك العالم أتباع له، وجودهم متوقف على وجوده، وليس العكس، فهذا العالم أصم أبكم؛ حيث الجمود، فعنترة ينتمي إلى جمادهم، ويعتز بانتسابه إليهم.

فانتساب عنترة البديل لم يكن إلى عالم البشر، بل هو انتماء إلى دنيا الحرب، وعالم السلاح، سيفه، ورمحه، وترسه، وفرسه، فهذه الجمادات والحيوانات تمثل أهله، وأصدقاؤه المقربون إلى نفسه، وروحه، لا يتخلون عنه وقت الشدة والعوز، فينتسب إليهم قائلاً (من الوافر):-[١٩]

أنا الحصن المشيد لآل عبس ... إذا ما شادت الأبطال حصنا
شبيه الليل لوني غير أني ... بفعلي من بياض الصبح أسنى
جوادي نسبتي وأبي وأمي ... حُسامي والسنانُ إذا انتسبنا

لم يحظ عنترة بكرم النسب، من بني البشر، فلجأ إلى بديل قد يكأفؤه، ويوازيه، من اتجاه آخر، فأحال انتسابه إلى قيم الفروسية، والشجاعة، والإقدام، في محاولة منه لكسب معركته؛ لإثبات كينونته ووجوده.

فإذا نظرنا إلى قوله أبي وأمي حُسامي، والسنان، نلحظ هنا أنَّ عنترة يضفي صفة الذكورة على كل من أبيه وأمه، الحسام والسنان، وكأنه بإرادة اللاوعي الباطن ينتمي إذا خُير للرجولة الكاملة، ولو يستطيع أن يتبرأ من كل صلة تربطه بالمرأة، أو

أمه زبيبة، يتمنى لو كان خالصًا للرجولة الكاملة من طرفيه، والطرفان هما الأب والأم، والأنا /عنترة المذكرتان البعيدة عن الأم الخافتة، فهو يريد من المجتمع الذكوري، أن ينظر إليه كرجل كامل الرجولة، دون الأخذ بعين الاعتبار أي صلة له بالجانب الأنثوي الأمومي.

يظهر عنترة وكأنه بالازدواجية أو الثنائيات المتضادة فمنها قوله (من الكامل):-

وأنا المجرب في المواقف كلها من آل عبس منصبي وفعالي
منهم أبي شداد أكرم والدٍ والأم من حام فهم أخوالي
فحياة عنترة مليئة بالوحدة والغربة حيث غربة الروح والنفس

الخاتمة:

لقد كانت شخصية عنترة من الشخصيات التي حيرت الباحثين؛ لأنها تجمع بين الثنائيات المتضادة، والتي جعلت منها تربة خصبة صالحة للاستحضار والتوظيف، في أي عصر وفي أي مكان، بل أصبح أيقونة التمرد الإيجابي في عصره، وحتى الآن، فالحمد لله حمد كثيرًا مباركًا، الذي بنعمته تتم الصالحات.

الهوامش

(١) الشعراء السود، عبده بدوي، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١م، (د . ط)، صـ٣٤ .

(٢) الانتماء في الشعر الجاهلي، فاروق إسليم، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨م ، (د . ط)، صـ٨٨.

* فالسبية قد تكون حرة، كريمة الأصل، شريفة النسب، بيضاء البشرة، فلا يفقدها السبي تلك المزايا، ولذلك إذا استولدها سيدها لن يناله العار لأنها لن تكون لغيره، فبذلك ضامنًا لولده منها، أمَّأ الأمة السوداء فعكس كل ذلك، ولذلك يعامل ولدها بازدراء، ولن يكون نصيبها من المجتمع إلا الإقصاء والإبعاد والرفض.

(٣) الديوان صـ١٥٧.

(٤) دبوان النابغة الذبياني صـ ٦٣ .

(٥) دبوان امرؤ القيس صـ٣٨ .

(٦) ديوانه صـ١٦٧.

(٧) من الديوان صـ١٧٤ .

(٨) من الديوان صـ١٢٤ .

(٩) من الديوان صـ١٤٠.

(١٠) من الديوان صـ١٥٦.

(١١) من الديوان صـ٦٩ .

(١٢) من الديوان صـ.

(١٣) من الديوان صـ١١٦ .

(١٤) من الديوان صـ ٧١ .

(١٥) من الديوان صـ٩٨ .

(١٦) من الديوان صـ١٠٢.

(١٧) من الديوان صـ١٣٦ .

(١٨) من الديوان صـ٨٣ .

(١٩) من الديوان صـ١٨٣.

المراجع

١- ديوان عنترة بن شداد، حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية،٢٠٠٤م.

٢- الشعراء السود، عبده بدوي، دار قباء، القاهرة، د. ط، ٢٠٠١م.

٣-الانتماء في الشهر الجاهلي، فاروق إسليم، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨م.